المؤسسات الفينيقية الاولى*

بقلم الامير موريس شهاب
امين دار الآثار اللبنانية

اسم فينيقية

لقد اعتدنا ان ندعو « فينيقيين » سكان الساحل السوري من مصب العاصي الى جبل الكرمل . ولكن يظهر ان « الفينيقيين » انفسهم لم يتسموا بهذا الاسم الا في العصور المتأخرة، اي لبضعة قرون قبل المسيح .

وقد قال بعض العلماء ، ومنهم سيث خاصة ، ان الفينيقيين هم ذاك الشعب الاسيوي الذي دلّت النصوص المصرية باسم «فنكو» . على ان هذا الرأي لا يدعمه الا القليل من المريدين حتى ان علماء المصريات انفسهم يترددون في قبوله .

والظاهر ان اسم « فينيقية » نشره اليونان اولاً فعندهم ، على كون بعضهم لم يجهل انه ليس بالاسم الاصلي للبلاد التي دعوها به . فكان هيكاتي يعلم ان اسم هذه البلاد « كنعان » وقال غيره من مؤلفي اليونان — وقد ارادوا ان يجتمعوا فونيكس — انه كان جدّ اجينور الصوري والد قدموس ، او اخاه او اسمه الفينيقي .

واذا القينا نظرة على تلك المراسلات التي تبادلها في القرن الرابع عشر ق. م. ملوك الفينيقيين والفراعنة امنوفيس الرابع ، ثم توت عنخ آمون ؛ والتي

* مادة الجزء الاول من محاضرات « معهد الآداب الشرقية » في فرع « علم الآثار الشرقية » .

اكتُشف اكثرها في تلّ العارنة ، عاصمة الفرعون المذكور ، نجد ان بلاد الفنيقيين مدعوّة فيها كِينَهو او كِينَهْنو .

ثم ان الكتاب المقدّس ، في تعداده اصول الشعوب المختلفة (سفر التكوين : الفصل العاشر) يذكر ان صيدون كان ابن كنعان البكر . والحال ان اسم الصيدونيين في الكتاب يدلّ عادةً على الفنيقيين.

واذا ارتقينا الى القرن الثاني قبل المسيح نجد ، على بعض النقود المضروبة على عهد انطيوخوس الرابع ، ان لاذقية لبنان تدعى « اللاذقية التي في كنعان »

فهل يمكن ، وقد اجتمعت لنا هذه الادلة ، ان نُنكر ان البلاد التي يهمّنا امرها كان اسمها « كنعان » .

فاذا كان ذلك ، فمن اين اخذ اليونان اسم فنيقية فدعوا به هذه البلاد ؟

هو سؤال جهدت في حلّه مخيّلات الاثريين فاتتهم بالنتائج المتعدّدة المتباينة :

قال بعضهم ، وفي مقدّمتهم ايزيدور ليثي ، ان الامة « فنيقي » أطلق اولًا على الارض التي تحجب الأفق في البحار اليونانية . فذكروا انه : تجاه جزيرة رودس ، يرتفع رأس من الارض اسمه فنيكس . وقد كانت منطقة الساحل الكاري المجاورة ، على بحر ايجه ، تدعى فنيكة ، ولكنها فقدت هذا الاسم فلم يُحفظ الا للدلالة على الرأس المذكور حتى عهد الامبراطورية . فتكون النتيجة ان بحّارة اليونان عند خروجهم من بحارهم كانوا اول ما يصادفون من الارض منطقة فنيكة ، وقد يكون امتد هذا الاسم ، في نظرهم ، شيئاً فشيئاً حتى بلادنا .

ويعدّد ارباب هذه الفرضية الامثلة المشابهة لهذا الامتداد في الاسم ، فيذكرون ان الاتراسيين دعوا اولًا باسم المانية بلاد الصرب ؛ وان اسم افريقية كان يُطلق اولًا على مقاطعة رومانية صغيرة مجاورة لقرطاجة ثم امتدّ على كل القارة المعروفة . . .

على ان كل هذه الامثلة لا تقنع فريقاً آخر من العلماء وفي رأسهم ڤيكتور بيرار . هو لا يُنكر امكان مثل هذا الامتداد في الاسم . انما لا يرى مسوّغاً للزعم ان الساحل الكاري كان يُدعى فنيكة . فضلًا عن ان الرأس فنيكس

لا يقوم حاجزاً في نظر من يترك المياه اليونانيـة متجهاً الى الشرق . اما الامر بالضد ، فهو يظهر حاجزاً لمن يأتي من الشرق الى الغرب . وعليه فيكون من المعقول ان امتداد اسم فنيكة ، ان كان هناك امتداد ، يقع على الساحل اليوناني فيُسمّى هذا باسم فنيقية لا بلادنا . ثم ان ڤيكتور بيرار يبيّن ان هناك رأياً آخر اكثر انحرافاً من الاول الى جهة الشرق يُدعى فينيكا ، واليه كان يجدر بزيدور ليقي ان يُشير لانه افضل وقعاً بالنظر الى المياه اليونانيـة . ولا يكتفي بيرار بهذه الملاحظة ، بل يعـدّد ذكر الامكنة المدعوّة فنيكية او فنيكس على السواحل الجنوبية والغربية تجاه ليبية .

وهناك فرضية اخرى لا بأس من ذكرها . وهي تستند ، في شرح اصل « فنيقية » ، الى اللغـة . فتقول ان لفظة φοῖνιξ باليونانية معناها « النخلة » وان اليونان اطلقوا هذه اللفظة على بلادنا لانهم رأوا فيها شجر النخل المجهول في بلادهم . ويؤيد هذه النظرية عدد من العلماء يظهر ان منهم الاستاذ دسّو . فيردّ عليهم البعض بقولهم ان شجر النخل قليـل جداً في فنيقيـة وليس من المحتمل ان يكون اليونان قد نظروا الى هذه الخاصة . فبعيد الاولون الكرة موردين مثلاً قرية عمشيت ، في منطقة بيبلوس ، وما فيها من نخل ، ذاكرين ان زراعة النخل فيها تستند ، ولا بدّ ، الى تقاليد قديمة .

وفرضية ثالثة تستند الى القصائد هوميرية فتقول ان لفظـة φοῖνιξ في تلك القصائد تفيد اللون الاحمر الدموي . وقد يكون اليونانيون اطلقوا هذه اللفظة على فنيقية اما بسبب صناعة الارجوان المشهورة فيها ، واما للون سكانها وقد أثّرت فيهم اشعة الشمس وحرارة الحر . وهكذا يقرّبون بين جـدودنا الفنيقيين وابناء العنصر الاحمر . وليس من حجـة الى القول ان اعداء هـذه الفرضية يردّونها بحجج عديدة منها : ان كان هناك من لون احمر فيكون لا في سكان فنيقية ، انما في سكان الشمال ، في اولئك الرجال ذوي الجلود الطافحة باللون الدموي وذوي الشعور المتهبة ، في قوم الخيل « الاشقر » وابنـه نيوس « الاحمر » ذي الشعر « الناري » .

اطلنا في ذكر هذه الفرضيات — وهي اشهر ما عُرض في سبيل شرح اسم

فنيقية — للدلالة على ما تصل اليه مخيلة البشر ، حتى العلماء منهم ، عندما لا يكون لها ما يضبطها من الآثار الوضعية . ويكفينا ان نعرف الآن ان اصل لفظة « فنيقية » لا يزال في محيط الغوامض ، فلنهتمّ بالاسم التاريخي الذي عُرفت به بلادنا قبله ، وهو اسم « كنعان » .

اتساع ارض كنعان

تدلنا الآثار العديدة على ان هذا الاسم لم يُطلق على الساحل اللبناني وحده . وها ان الكتاب المقدّس يطلقه على ارض الميعاد قبل وصول العبرانيين اليها . والشواهد الاثرية تبرهن ان سكان ارض الميعاد وسكان السواحل اللبنانية من نسل واحد . ولغتهم هي لغة الفنيقيين . نعرف ذلك بواسطة اسماء الاعلام ، وبنصوص الرسائل المتبادلة بين ملوك كنعان والفرعون امينوفيس الرابع ، والتي اشرت اليها قبيل هذا الكلام .

وعبادة سكان المنطقتين واحدة في معظم مظاهرها ، كما تفيدنا نصوص الكتاب المقدّس والمكتشفات الاثرية العديدة . وكذلك القول عن آنيتهم وسائر اثاثهم . حتى انه لو اراد احد الاثريين ان يدرس فنّ الخزف الفنيقي لكان عليه ان يبدأ لا بلبنان بل بفلسطين ، ثم ينتقل الى ساحلنا ، فلا يرى فرقاً جوهرياً بين ذينك المظهرين الفنّ الواحد .

بل ان تكوين الارض نفسه لا يضع بين المنطقتين تلك الحواجز الغلابة التي تكاد تمنع المواصلات الا بواسطة الانهر ، والتي نراها بين فنيقية وسورية مثلاً . ونحن اذا استثنينا رأس الناقورة والرأس الابيض — وقد شقّ فيهما الفنيقيون الطرق — رأينا ان المواصلات سهلة بين البلدين ، وان جبال فلسطين القليلة الارتفاع المتدرجة التكوين اقرب الى جبال لبنان الجنوبي بين صيدا وصور .

يفيدنا كل هذا ان شعباً واحداً وان منقسماً الى قبيلين ، كان يسكن فلسطين وفنيقية ولكنّ هذين القبيلين لم يتشابها تماماً في حياتهما . وهو امر معقول بسبب ما بين البيئتين الجغرافيتين من الاختلاف ، على ما بينهما من الشبه الظاهر

من هذه الفروق بين كنعاني لبنان وكنعاني فلسطين أن الساحل الفينيقي ، على رغم ما فيه من المخاطر ، يصلح للملاحة . ويمكن الملاحون ان يجتنبوا الاهوية الوسيلة سواء أهبت من الشمال ام من الجنوب . وذلك ببنائهم ، في الجزر او الرؤوس ، تلك المرافئ الفينيقية المزدوجة،اي مرفأ الجنوب ومرفأ الشمال . وهو ما نتحققه في المدن الفينيقية حتى اليوم . فان المرفأ الشمالي في صيدا لا يزال صالحاً للاستعمال . اما المرفأ الجنوبي فيقع في جون واسع بجوار ما يُدعى بجورة الرمان . وفي صور كذلك لا يزال المرفأ الشمالي مستعملاً ؛ بينما نرى المرفأ الجنوبي ، وهو الذي دعاه القدماء بالمرفأ المصري ، عرضة للرمال تطمره شيئاً فشيئاً خاصةً منذ ان فتحت ترعة السويس ، فولدت ، على ما يزعم البعض ، مجرًى من الجنوب الى الشمال.

وكان الفينيقيون في فصل الشتاء ، عند اشتداد العواصف والانواء ، يستفيدون من مجاري الانهر القريبة من مدنهم ، فيلجأون اليها بسفنهم ويضعونها بمنزل عن الخطر . واننا لا نزال حتى اليوم ، اذا ما انتقلنا في الشتاء من صيدا الى صور ، نرى في مصب الليطاني عدداً من الزوارق الشراعية يلجأ بها اهل صور من خطر العواصف .

اما فلسطين فقد ظل ساحلها حتى ايامنا هذه غير صالح للمرافئ . فكان ان الكنعانيين المقيمين في فلسطين اتجهوا خاصةً الى الاعمال الزراعية ، متصلين بمصر عن طريق الجنوب ، وببلاد كلدو عن طريق صحراء سورية او عن طريق الشمال . ولكن لم يكن بامكانهم ان يتصلوا بمجمل مناطق البحر المتوسط الا بواسطة الفينيقيين الذين أغلتهم بلادهم للملاحة والاسفار البعيدة كما قدمنا . ولما كانت فلسطين مقفلة تقريباً بوجه ابنائها من الشرق والجنوب والغرب ، وهي عرضة للغزوات المتعددة، دفع سكانها الى الاعمال الزراعية، والى الحرب فالالتجاء ضمن قلاعهم كلما شعروا بقدوم فاتح جديد . فكان ان هذه الحياة اخذت تفرقهم شيئاً فشيئاً عن الفينيقيين ؛ وامام هؤلاء الآفاق واسعة والمجال فسيح حتى لقد كانت حياتهم اقرب الى الحياة البحرية منها الى حياة سكان الداخلية . فنتج من ثمّ ميزات فارقة بين قبيلين من

اصل واحد : كنعان فلسطين ، وكنعان لبنان . ويمكننا من الآن فصاعداً ان نسمي هؤلاء بالفنيقيين

اصل الفنيقيين

هل كان الفنيقيون سكان البلاد الاصيلين ، أم انهم غرباء هاجروا الى هذه السواحل فسكنوها ؟ وان كانوا من المهاجرين فالى اي عنصر ينتسبون ، ومن اي بلد قدموا فاحتلوا الساحل اللبناني ؟ وهل وجدوا هذه المنطقة خالية من السكان ، ام صادفوا فيها اناساً وطنيين ؟

سنحاول الجواب الممكن عن هذه الاسئلة المهمة ، مستندين الى ما تفيدنا الحوادث التاريخية ، والاساطير ، والمكتشفات الاثرية :

كان من عادة الفنيقيين ان ينسبوا تأسيس مدنهم الى الآلهة او الى الرجال المؤلهين . فينشأ حول كل مدينة عدد من الاساطير تتضخم شيئاً فشيئاً حتى تغطي ذكر التأسيس التاريخي . ونحن نرى شيئاً من ذلك اذا ما درسنا التقاليد الدينية عند الفنيقيين .

وافضل مصدر لنا في هذا الدرس ، كتاب ألفه اوسابيوس اسقف قيصرية في القرن الرابع للمسيح ، دعاه « الاستعداد للحياة الانجيلية » ونقل فيه كثيراً من النصوص عن ديانة الفنيقيين ، في سبيل نقدها وتبيان فسادها . وقد اخذ هذه النصوص عن كتاب ألفه كاتب وثني وُلد حوالى السنة ٤٢ قبل المسيح اسمه فيلون البيبلوسي . وفيلون هذا ينقل معلوماته ، مترجمةً الى اليونانية ، عن كتاب فنيقي ينسبه الى سَنكونياتون ، الكاهن الفنيقي لمدينة بيروت ، الذي كان معاصراً لدمار طروادة ، اي في القرن الثالث عشر قبل المسيح .

يصف لنا فيلون الكاهنَ سَنكونياتون رجلَ درس واجتهاد ، ميالاً الى النقد ، مفتشاً عن الحقيقة . ويقول : « ان الكهنة قبل سَنكونياتون كانوا قد حرّفوا الحقيقة باختراعهم كثيراً من الرموز والامثال وبخلطهم بينها رغبةً منهم في الحاقها بحركة الكون العامة . وهكذا وضعوا الغازاً وغوامض كثيرة في الديانة حتى اصبح من الصعب على الناقد ان يتحقق ، من خلال هذه الحجب

الكثيفة ، الحقيقة الصرفة بين الرموز والالغاز . وقد كان من فضل سَنكونياتون انه اكتشف في بعض الهياكل نصوصاً سرّية ترقى الى الاموريين فاستند اليها ، واقصى عن الحقيقة كل ما يحيك حولها من الامثال الناشئة عن الاسلوب الرمزي »

هذا قول فيلون عن سَنكونياتون . على ان النقّاد كثيرًا ما اتهموا فيلون باختراع ما ينسبه الى ذلك الكاهن الفنيقي . حتى كانت حفريّات راس شمرا الحديثة فكشفت عن ملحمة دينية فنيقية ترقى الى القرن الثالث عشر او الرابع عشر ق.م. افادتنا ان ما يذكره فيلون يرتكز على أسّ متين من التقاليد الفنيقية .

ثم ان ملحمة رأس شمرا هذه فيها كثير من الاختلاط والغموض مما يدل على انها مزيج من عدة تقاليد ضُمّ بعضها الى بعض . وهو ما يظهر كذلك في كتاب فيلون ، فانه كثيرًا ما ينسب الحوادث نفسها الى اشخاص مختلفين . وهو ما يدلنا على اننا ابعد من ان نصل الى تقليد فنيقي صرف . فلا اقل من نأخذ به كما اتانا من خلال الاساطير التي أثّرت في تاريخيته ، بلا شكّ ، ولكن دون ان تغيّر في جوهره .

ان مبدأ العبادة الفنيقية ، كما يذكره فيلون ، يستند في بعضه الى تأليه الاشخاص الذين تُنسب اليهم الاختراعات او الحوادث التاريخية . فنرى مثلاً ان من قران اليون بامرأته بيروت نشأ غلام اسمه اورانوس وابنة اسمها گي . وقد قُتل اليون في عراك بينه وبين بعض الحيوانات المفترسة ، فاحتفل ابناؤه بتأليهه بان قاموا بالتقادم والضحايا . اما اورانوس فتزوّج اخته گي ورُزق منها اربعة اولاد كان اكبرهم ايل المدعوّ ايضاً كرونوس . على ان اورانوس تزوّج بعدة نساء ، فثارت گي وعملت على ضرّه . فهجرها واراد ان يهلك ابناءه منها . فكان ان كرونوس ، وقد بلغ اشدّه ، اخذ بنصرة امّه وبمحاربة ابيه ، فبنى سوراً حول بيته ، وأسس بيلوس اول مدينة فنيقية . وكان ، في بعض وقائعه مع ابيه ، قد سبى اعلق نسائه بقلبه فاعطاها زوجةً لاخيه داغون . وكانت حُبلى من ابيه اورانوس فولدت غلاماً دُعي دِمارون .

يظهر من هذه الاسطورة اثبات صريح بان كرونوس أسس بيلوس ، وان

بيبلوس اقدم مدينة فنيقية. وقد تكون بيروت ، جدّة كرونوس ؛ ودمارون ، اخوه من ابيه ، من مظاهر تشخيص المدن في الاساطير فيكون المعني فيها بيروت ودامور.

وقد نشأت الاساطير كذلك حول تأسيس مدينة صور. واشهرها ان الجابرة الذين دُعيت باسمائهم جبال لبنان ، وانتيلبنان ، وكاسيوس ، وبراني ، ولدوا اخوين هما سامرومس وأوسوس . اما سامرومس فكان حضرياً سكن صور واختزع صنع الاكواخ من القصب والخيزران والبردي . واما أوسوس فكان صيّاداً ، وهو اول من جمع جلود الحيوانات ، على قول فيلون البيبلوسي، فصنع منها الثياب. وقد هاجت عليه الاهوية العاصفة مرّةً ، وانهمرت الامطار ، واشتعلت النار في الغابات فهرب منها . ثم اقتطع شجرة ، وفرع اغصانها . واتخذها مركباً له في البحر . فكان اول من اجترأ على مقاومة الامواج . فغدا ، من ثمّ ، الجدّ الاعلى لذاك الشعب الذي سيؤسس قرطاجة ، وسيدور حول افريقية ، وسيظلّ ، على اكثر من ثلاثين قرناً ، المسلّط المطلق على الملاحة البحرية تجارية كانت او حربية.

ويرى الدكتور كونتينو ، مستنداً في كتابه « المدنية الفنيقية » الى اقوال فيلون ، ان أوسوس أسس مدينة صور او تير البحرية . لان فيلون يقول عن أوسوس هذا انه بعد ان ركب البحر اقام مسلّتين احداهما للنار والثانية للهواء، ثم عبدهما مهرقاً دماء الحيوانات التي كان قد اصطادها.

نستنتج من كل هذه التقاليد الاسطورية ان جميع المدن الفنيقية تقريباً كانت عريقة بالقدم عندما شاء السنكونياتون ان يكتب تاريخها ، حتى ان ذكريات تأسيسها كانت قد علقت بالغموض فنسبت الى اشخاص مؤلّهة . فهل يمكننا ان نقترب نوعاً من زمن تأسيسها، وهل يمكن ان نعيّن هذا الزمن بطريقة تقريبية ؟

عندما مرّ الرحالة اليوناني الشهير هيرودوطس بمدينة صور ، في منتصف القرن الخامس ق. م. زار هيكل هركول الذي كان يليه الصوريون اكراماً جزيلاً ، فقال :

« كان الهيكل مزدانا بكثير من التقادم والنذور . وكان فيه عمودان

احدهما من الذهب الخالص، والثاني من الزمرّد ساطعاً في الليل. وبينما كنت، ذات يوم، اتحدث الى كهنة هذا الاله، سألتهم عن زمن تأسيس الهيكل. فاجابوني انه بُني وقت تأسيس المدينة. وهي مأهولة منذ الفي سنة وثلثمائة سنة.»

فاذا اعتمدنا قول الكهنة الصوريين، وأضفنا الى ما ذكروه من الزمن عدد السنين بين هيرودوطس والمسيح، وقع تأسيس مدينة صور في السنة ٢٧٥٠ ق. م.

ولنلقِ الآن نظرة على العالم القديم في ذاك العصر:

فنجد في مصر مدينة متقدّمة مزدهرة. ولكنها غير سامية.

اما في بلاد كلدو فنتحقق انه في القرن التاسع والعشرين ق. م. غزا تلك البلاد قوم من الساميين فأسسوا فيها دولة اصلها من امورو اي من البلاد السورية. وكان من اولى ملوك هذه الدولة سرغون ونارَمسين. وقد صادف هؤلاء الساميّون في كلدو عنصراً من السكان ربع القامة الى القصر، مستدير الرأس، مربع الذقن، اقرب الى عناصر آسية الوسطى منه الى عناصر البلاد العربية. وهو يتكلم لغةً بعيدة عن لغة الساميين. وقد عُرف من ثمّ بالعنصر الشومري.

اما الساميّون، الذين ظهر منهم سرغون ونارَمسين، فكانوا طوال القامات، مستطيلي الرؤوس والوجوه، قُنْي الانوف على الغالب، ذوي لحى طويلة محدّدة. ولغتهم تقترب من اللغات التي نعرفها للساميين حتى اليوم كلغات العبرانيين والعرب.

ونحن نعلم بواسطة الآثار التاريخية ان هؤلاء الساميين، القادمين اصلاً من بلاد أمورو، قطعوا جبل طوروس فدخلوا آسية الصغرى. والحال اننا نتحقق في شمالي سورية، في قبادوقية، في القرن الخامس والعشرين ق.م. وجود جالية مهمة من الساميين، دلتنا عليها الرقم الآجرية العديدة المحفوظة حتى ايامنا.

وكانت مصر نفسها تهدّدها هجمات الساميين حتى انها دُفعت الى الدفاع عن الدلتا تجاه هذه الهجمات.

واذا وقفنا، في اوائل الالف الثالث قبل المسيح، اي في الزمن الذي

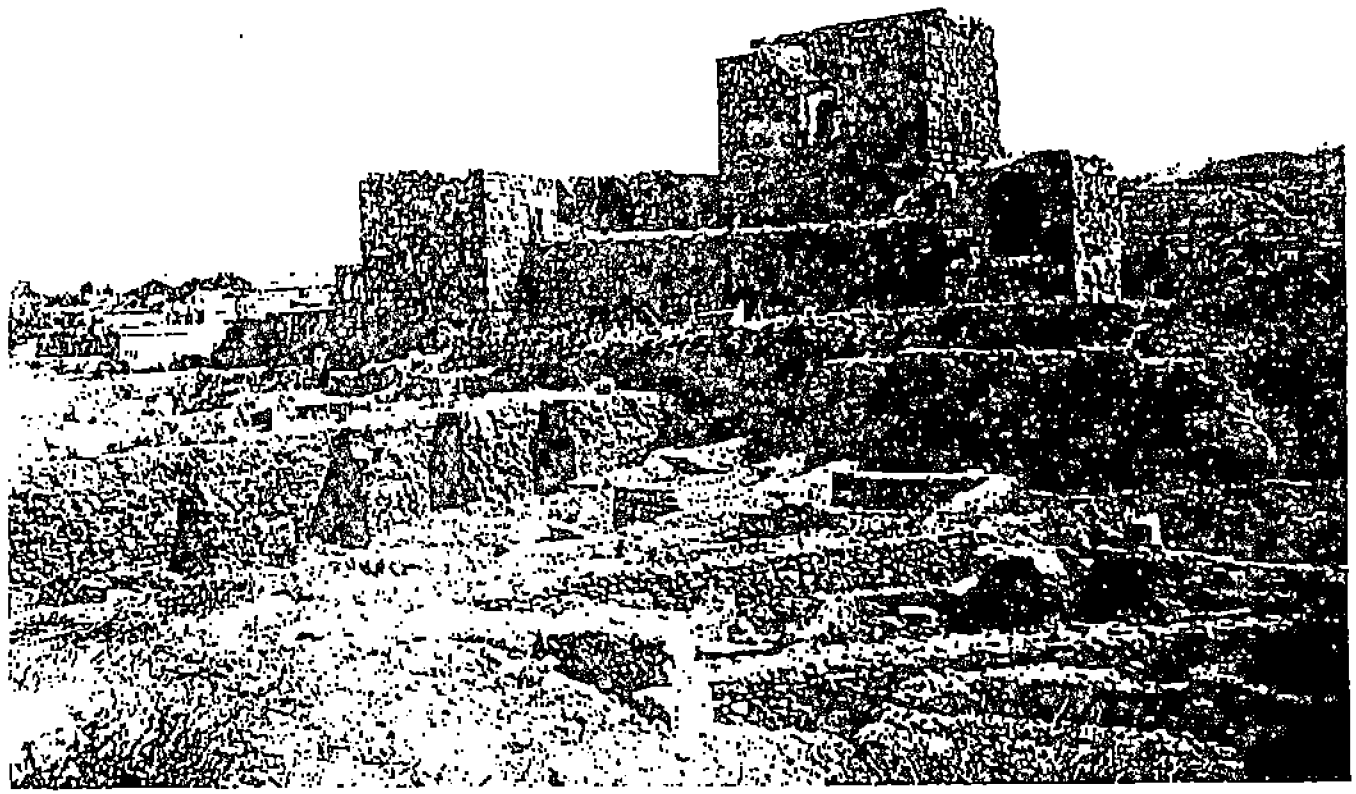

الرسم ١ – موقع الحفريات في بيبلوس، وتظهر فرقة القلعة الصليبية ، وتحتها الى الشمال السور الفنيقي والى اليمين اسس جدران المدينة القديمة

(حقوق النقل محفوظة للاستاذ دولان .(Copyright by Mr Maurice Dunand

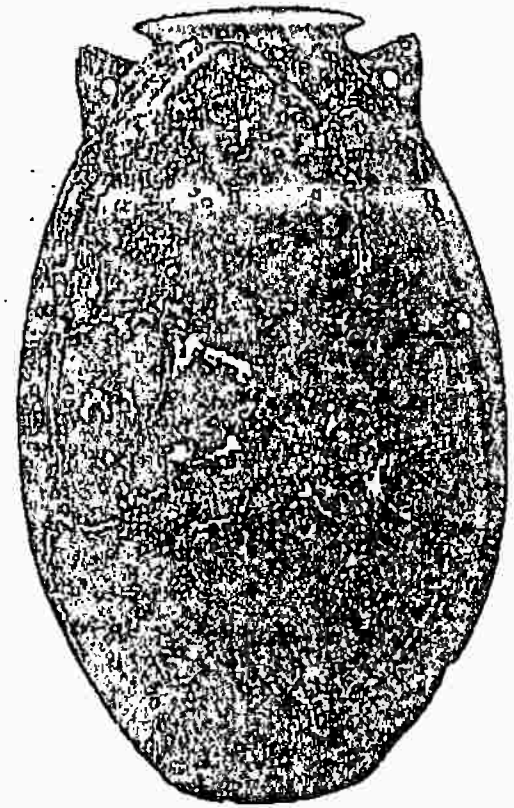

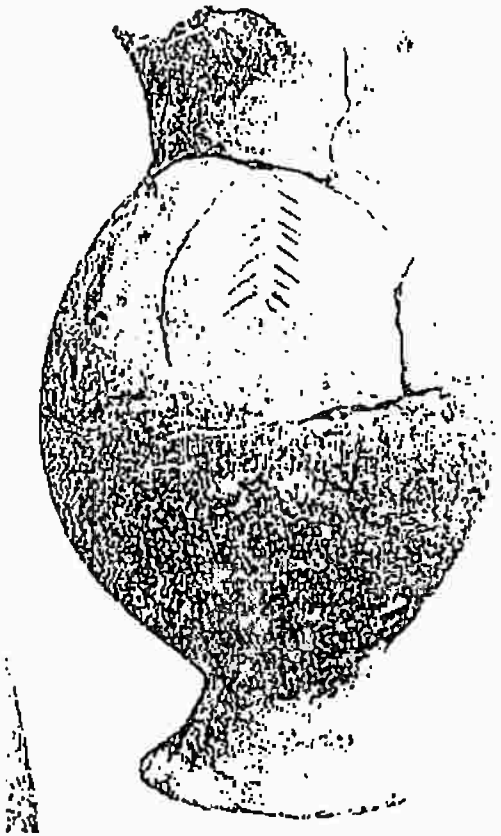

جرة وُجدت في بيبلوس وكانوا يدفنون فيها موتاهم
(الالف الرابع ق. م.)

(حقوق النقل محفوظة للاستاذ درنان Copyright by M. Maurice Dunand.)

يعيّن فيه كيفان صور تأسيس مدينتهم ، نتحقق في جميع البلاد المحيطة بفلسطين دفعات ساميّة ، ان لم نقل غزوات . فهل توقفت هذه الدفعات الى دخول بلاد سورية وفلسطين ؟ هو ما يجيب عنه علم الآثار القديمة .

كشفت لنا حفريات فلسطين ، وخصوصاً حفريات گوزر ، تغيّرًا في العادات المدفنية . ولا يخفى اي مركز تحتلّ الطقوس المدفنية في حياة الشعب . فان تكريم الموتى ، بل عاداتهم احياناً ، يتقيّد بتقاليد بعيدة تمتّ بالصلة المتينة الى دين الشعب . ولا يخفى ما كانت تصطبغ به الديانات من الصفات القومية . واذًا فان التغيّر في العادات المدفنية يفيد عادةً تغيّرًا في الدين ، ومن ثمّ تغيّرًا في عنصر السكان.

والحال اننا نرى في اوائل الالف الثالث ق. م. في گوزر ، جنوبي فلسطين ، تغيّرًا مهمًّا في الطقوس المدفنية . وذلك انه بعد ان كان من عادات اولئك السكان ان يحرقوا موتاهم اصبحوا يختفلون بدفنهم . وقد كان من حظّ الاستاذ مكاليستر ان يكتشف ، في گوزر ، قبرًا تلا فيه الدفنُ طريقةَ حرق الموتى . وقد أُجري الفحص الدقيق على الهياكل المدفونة هناك فافاد انها تُنسب الى عنصر سامي.

وكذلك في بيبلوس فان الاكتشافات الاثرية تفيدنا وجود عنصر ساميّ جديد في اوائل الالف الثالث قبل المسيح . فان الحفريات التي أجريت في هيكل بيبلوس كشفت قطع آنية من حجر الشطوط قدّمها الى الهيكل بعض الفراعنة من الامبراطورية القديمة اي من الالف الثالث ق. م. ووُجد ان اقدم هذه القطع يحمل اسم الفرعون خاسخموي المالك في مصر في القرن الثلاثين ق. م. واذًا ، فان هيكل بيبلوس،الذي ظلّ قائمًا عدة قرون، كان موجودًا على الاقل منذ القرن الثلاثين.

ثم ان الحفريات دلت على ان هذا الهيكل بُني في ارض جديدة بمعنى انه لم يسبقه بناء في مكانه . والارض مكوّنة من طبقة حمراء صلصالية يبلغ سمكها في بعض الاماكن خمسين سنتيمترًا ، تفصل اساس الهيكل عن مقبرة قديمة واسعة .

وقد وُجد في هذه المقبرة نحو مائتي جرّة استُعملت لدفن الموتى من جميع الاعمار . وهي انواع . فالجرار التي دُفن فيها اولاد تبدو منتفخة البطن ، وقد لا يكون لها مماسك ، وهي تبلغ نحو ٢٠ سنتيمتراً طولاً . اما الجرار التي استُعملت لدفن البالغين فتظهر مستطيلة بيضوية الشكل ، لها اربعة مماسك : اثنان من فوق واثنان من اسفل موازيين للاولين . ويظهر حولها احياناً زنّار يجعلها في مستوى الثلث الاول من ارتفاعها . وقد وُجدت هذه الجرار الاخيرة منبطحة كلها ، بينما كانت جرار الاطفال تبدو على جميع الهيئات حتى العمودية . ولم نتحقق ان هناك جهةً معيّنة قُصدت في توجيه الجرار .

كانت الجثة تدخل في الجرّة من كوّة تُفتح في احد جوانبها ثم تُسدّ . وقد ظهرت الهياكل العظمية داخل الجرار على هيئات مختلفة : منها ما كان منحنياً واليدان امام الوجه . ومنها ما فُككت مفاصله وطُرحت عظامه كومةً دون ترتيب . بل ان منها ما لم يكن تاماً سواء أكان ذلك بطرح بعض عظامه ، الّا الجمجمة فقد وُجدت دائماً ، او بحرق بعضها .

وكان الى جنب هذه الهياكل كثير من الآنية والمعدّات وقطع الرياش . منها خاصة عدد من الآنية الخزفية المنوّعة الاشكال ، والدالّة على تقدّم في الصناعة ، وبعض الاسلحة والادوات الظرّانية . ثم هناك امر لفت الانظار ، وهو انه وُجد احياناً مع الهياكل العظمية خواتم واقراط من الفضة ، وبعض الشفرات النحاسية ، وان تكن هذه الاخيرة دالة على صناعة ابتدائية بسيطة فانها تبرهن على ان سكان بيبلوس الاولين عرفوا استعمال بعض المعادن . واذاً فلا يمكننا ان نرقى بعهد المقبرة الى زمن بعيد . على انّ وجود الهيكل المؤسس في القرن الثلاثين قبل المسيح على الاقل ، وما نعرفه عن العادة السامية القاضية بان الهيكل يجب ان يكون في ارض عذراء لم يستعملها احد فيدنّسها ، كل هذا يقودنا الى الاستنتاج ان الهيكل بُني في عصر كان الناس قد تناسوا فيه وجود المقبرة ، تحت تلك الارض . وقد لا يكون هذا الا بعد مرور قرنين او ثلاثة .

ثم يجب ان ننتبه الى انه ، وان تكن القطعة الحاملة اسم الفرعون

خاسخموي تفيدنا تاريخ وجود الهيكل ، فهي لا تفيد ان الهيكل لم يكن سابقاً عهد هذا الفرعون . وعليه فتكون المقبرة ترقى على الاقل الى نحو السنة ٣,٣٠٠ قبل المسيح.

كان من نتيجة الدرس الانتروبولوجي الذي أجري على الجماجم المكتشفة ان الشعب الذي استخدم تلك المقبرة يختلف عن الشعوب السامية ، بل هو اقرب الى شعوب دُعيت « شعوب البحر المتوسط » لانها تركت آثاراً في سواحل هذا البحر جميعها وفي جزره ايضاً.

وها اننا نتحقق في بيبلوس ما تحققنا في گوزر من تغيّر عنصر السكّان حول السنة ٣٠٠٠ ق. م. اما العنصر الجديد فمعروف بفضل الآثار المكتشفة في بيبلوس وفي غيرها من البلاد التي كانت على اتصال بهذا الشعب . وفي كلها نجد تسلسلاً في عبادات هذا الشعب وعاداته ، تظهر صبغته السامية في تقاليده الدينية ، وفي لغته ، وفي اعلام الاشخاص . وشكله قريب جداً من الشكل السامي المعروف . يظهر ذلك لمن تأمل التماثيل الصغيرة المكتشفة في بيبلوس .

بقي ان نتقدم شيئاً فشيئاً عن اصل هذا الشعب :

يقول استرابون (١٦ : ٣ و ٤) انه « كان في الخليج الفارسي جزيرتان اسمها تيز وأراد وفيهما هياكل شبيهة بهياكل فنيقية . وكان سكانهما يدّعون بان فنيقيين من دمهم . » وقد انحاز الى قول استرابون هذا عدد من العلماء وفي مقدمتهم . سيدو فرأى في الهجرة الفنيقية هجرة مماثلة لهجرة قوم ثيرا وابراهيم الذين تركوا مدينة أور على ساحل خليج العجم ، فصعدوا الفرات ، وقطعوا البلاد السورية هابطين الى ارض كنعان.

ولكن هذه الفرضية ، على ما اثارته من الحماسة في صدور المدافعين عنها ، لا توافق التقاليد الفنيقية نفسها.

فقد ذكر هيرودوطس « ان الفنيقيين كانوا يسكنون في القديم على شواطئ البحر الاحمر ، كما يزعمون انفسهم ؛ ثم انتقلوا منها الى سواحل سورية ، وسكنوها . »

وفي عالم العلم اليوم عدد كبير من الاختصاصيين يميلون الى هذا الرأي عن

رأي استرابون . ولعله اقرب الى الحقيقة .

ليس من ينكر ان على عبادة الفنيقيين سمة التأثير الكلداني . فان آلهتهم مأخوذة من العناصر الطبيعية، ومنها ما يُعبد في بلاد الكلدانيين كعشتروت وادونيس - تموز . على اننا نرى ، في العصور القديمة ، الفنّ الفنيقي متأثرًا خاصة بالفنّ المصري . وان يكن حدثت صلات بين الفنيقيين والكلدانيين في تلك العصور ، فلا يمكن ان يكون ذلك الا في زمن قديم كانت فيه فنون الفنيقيين بسيطة ابتدائية ، فلم يحتفظوا بشيء من اثر الفن الكلداني الذي كان مزدهرًا في تلك العصور .

ومن المحتمل ان يكون الفنيقيون قد تأثروا ، في عهد سكناهم سواحل البحر الاحمر ، بأثر الكلدانيين الديني ، دون ان يحتفظوا باثرهم الفني ، لان فنّ الفنيقيين نفسه لم يكن قد بدأ تكوينه بعد .

ونحن نعلم بالاستناد الى المكتشفات المصرية ، والى الحفريات التي أُجريت مؤخرًا في بلاد الكلدانيين ، ان علاقات متينة كانت بين الشعبين في الالف الرابع ق . م . وذلك عن طريق شمالي جزيرة العرب ، على الارجح .

ثم اننا نعرف ان العبرانيين ، عندما دخلوا ارض الميعاد ، حلّوا فيها محل الكنعانيين . وان سليمان الحكيم ، عندما شاء ان يستعيد ازدهار التجارة الفنيقية في بلاد العرب الجنوبية ، حيث الذهب والحجارة الكريمة ، امر ببناء السفن في عصيون - جابر بجانب أيلة ، وطلب الى حيرام ، ملك صور ، ان يمدّه بالملاحين من صور ليرافقوا هذه السفن

وقد جمع يوستينوس (١٨ : ٣) تقاليد عريقة عن علاقات بين المنطقتين اقدم من عهد سليمان . فذكر ان ملك عسقلان حارب الصيدونيين وكسرهم ، قبل خراب طروادة بسنة واحدة . اي في القرن الثاني عشر ق . م . عندما كان الفلسطينيون يحتلون الساحل الفلسطيني ، كما تذكر الآثار الراقية الى رعمسيس الثالث .

وهناك ذكر اقدم من كل ما تقدّم لعلاقات الفنيقيين بمناطق كنعان الجنوبية المدعوّة نجب ، بل لاقامتهم فيها . نرى هذا الذكر في ملحمة الآلهة التي

اكتشفت مؤخرًا في راس شمرا ، وهي ترقى الى القرن الرابع عشر ق. م. اما موضوعها فيتصل بالتقاليد الدينية القديمة الراقية الى الاصول البعيدة.

في هذه الملحمة ذكر لشخص اسمه سيباني كان السلالة السابعة للاله ايل ، اعظم ارباب الفنيقيين . وقد بنى سيباني هذا مدينة اشدود ، ورفع شاهدًا للتحالف وسط صحراء قادش.

مَن يسافر الى مصر بطريق البرّ يقطع تلك الصحراء المقفرة ، ويصادف على مائة وعشرين كيلومترًا جنوبي بير سبع محطة القسيمات ، آخر الحدود الفلسطينية من جهة الصحراء . في هذه المنطقة الصحراوية تقع قادش المذكورة في نصّنا ، وهي تبعد اقل من مائتي كيلومتر عن مدينة أشدود . وقد اكتشف في القرن التاسع عشر، في محلّ اسمه عين قديرات من المنطقة نفسها ، آثار دلّت على وجود قلعة كنعانية ترقى الى الالف الثاني قبل المسيح . وليس من غاية لهذه القلعة المشيّدة في ارض صحراوية الا المحافظة على الطريق الواصلة مصر بالبحر الاحمر . ولا يخفى ما لذلك المكان من اهمية عسكرية لا تزال حتى اليوم . وقد ذكرت بلاد نجب مرارًا في ملحمة راس شمرا . وكلها تدل على ان الفنيقيين كانوا متصلين ببلاد نجب في اواسط القرن الثاني عشر ق. م. بل تدلّ ، فوق ذلك ، على ان هذه العلاقات مع مناطق البحر الاحمر كانت ترقى الى عهد بعيد حتى انها اتخذت شكلًا اسطوريًا ودخلت في مجمل عقائد الفنيقيين .

وهكذا فاننا نسمع في طرفي فنيقية المتقابلين ، وعلى مسافة فارقة تبلغ الف سنة ، الاقوالَ نفسها في ما خصّ اصل الفنيقيين. فيمكننا ، والحالة هذه، ان نميل الى جعل سكناهم الاولى ، في منطقة البحر الاحمر.

انساع المناطق الفنيقية

ممالك فنيقية

ومهما يكن من شأن هذا الاصل فان التاريخ يظهر لنا الفنيقيين يحتلون الساحل اللبناني بكامله وساحل الامانوس كذلك . فتمتدّ بلادهم من مصب العاصي الى سفح الكرمل.

كانوا يؤلفون اربع ممالك مهنة ، تستقل كل منها عن الاخرى نوعاً ما ، ولكل عاصمتها إما في جزيرة او على رأس متقدم في البحر . وهي من الشمال الى الجنوب : مملكة اراد وعاصمتها جزيرة أراد ، ومركزها المهم على الساحل مدينة عمريت .

ومملكة جبيل وعاصمتها مدينة جبيل مرتفعة على قمة فوق البحر . وقد دلت الوثائق التاريخية والمكتشفات الاثرية على اهمية هذه المملكة .

اما بترون وبيروت ودامور فكانت مدناً ثنوية .

وهناك الى الجنوب مملكة صيدون المزدهرة وعاصمتها قائمة على رأس متقدم تحيط بها الجنائن الغنّاء . وقد امتازت صيدون ، في التاريخ الفنيقي ، برجال الفنّ والثقافة العالية ، وادركت اوج ازدهارها في العصور الفارسية واليونانية . وان لم يكُن لدينا الكثير من الشواهد الاثرية على تاريخ صيدون ، فاننا نعرف بفضل بعض المكتشفات المتفرقة ، ولاسيما بالتي قام بها السيد ركيگ ان منطقة هذه المملكة كانت ، في الالف الثاني ق. م. ، تتسع كثيراً فيقوم فيها عدد من القرى العامرة في الجبال المتتابعة وراءها والتي تؤلف اليوم منطقة جبل عامل . على ان هذا الازدهار توقف فجأة في القرن الثاني عشر على اثر خراب صيدون

وتفصيل ذلك ان قبائل الاخائيين القادمين من الشمال ، او سكان شواطئ بحر ايجه ، قاموا بغزوة على مصر . فلم يقوَ الفرعون على صدّهم ، فتساهل بان سمح لاحدى هذه القبائل ، ان تقيم على الساحل الجنوبي من ارض كنعان .

وهي قبيلة الفلسطينيين المعروفين في التاريخ الذين حلّوا محل الكنعانيين واطلقوا اسمهم على ارضهم فدُعيت فلسطين . ولم يلبث ان بدأ العراك بينهم وبين صيدون . لانهم كانوا يحسدون ثروتها ويضيّقون عليها افق مطامعها باحتلالهم تلك الاراضي الكنعانية . فكان من نتيجة ذلك ان الفلسطينيين هجموا على صيدون واخربوا المدينة .

عند ذلك لجأ سراةُ الصيدونيين الى صور ، وكأنهم لقّحوها بما امتازوا به من الرغبة في العمل والشغل ، وبما حملوه معهم من الاموال . فغدت في طليعة

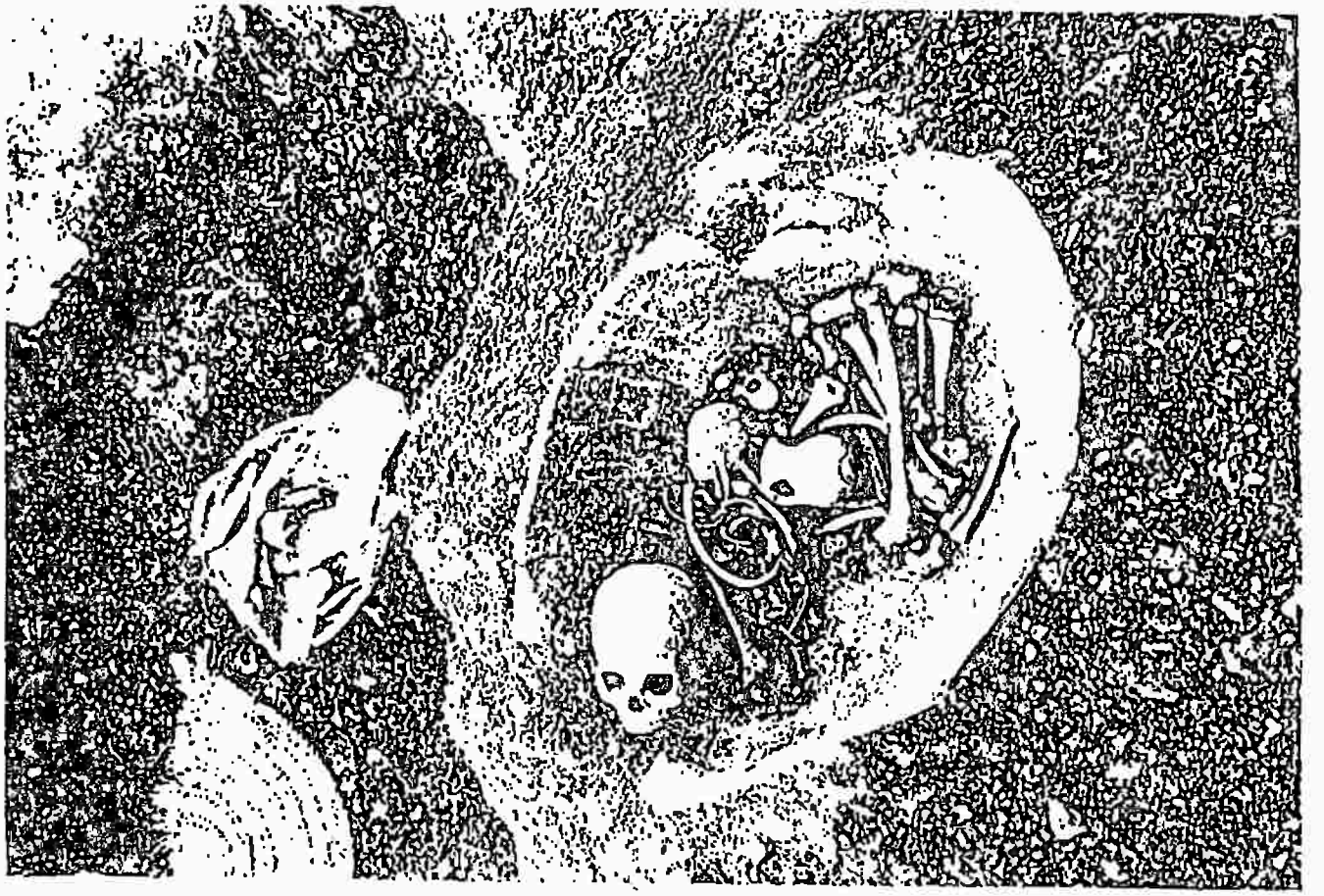

الرسم ٣ – ما فسن احدى الجرار الكسورة

(Copyright by Mr Maurice Dunaud. حقوق النقل محفوظة للاستاذ دونان

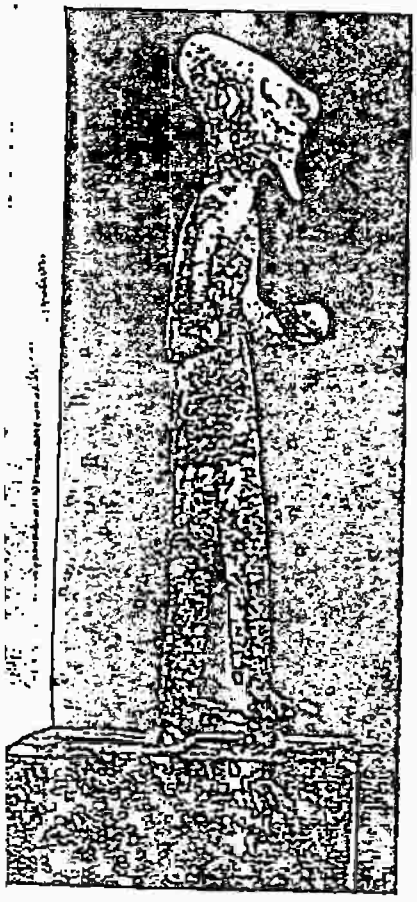

الرسم ٥

تمثال صغير من البرونز يمثل فتى ذا
(من الالف الثاني ق. م.)

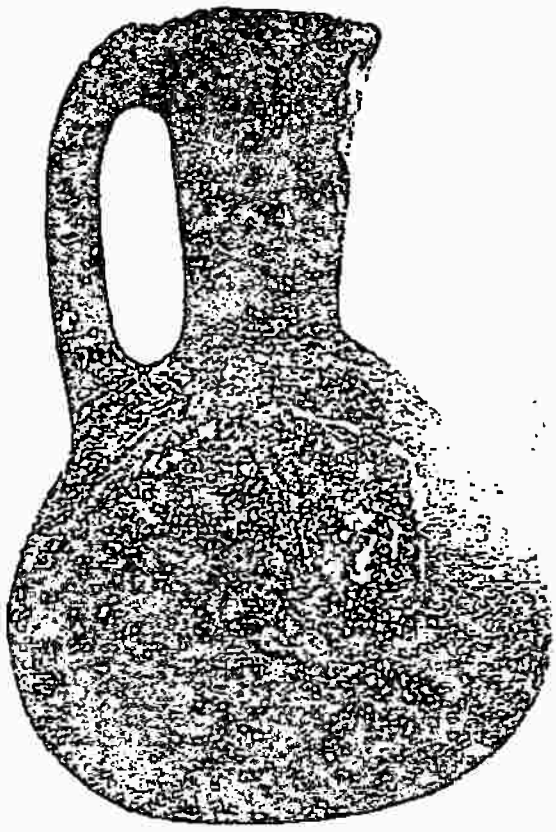

الرسم ٤

قطعة من الخزف وُجدت مع الجرار السابقة
(الالف الرابع ق. م.)

(حقوق النشر محفوظة للاستاذ دونان .Copyright by Mr Maurice Dunand)

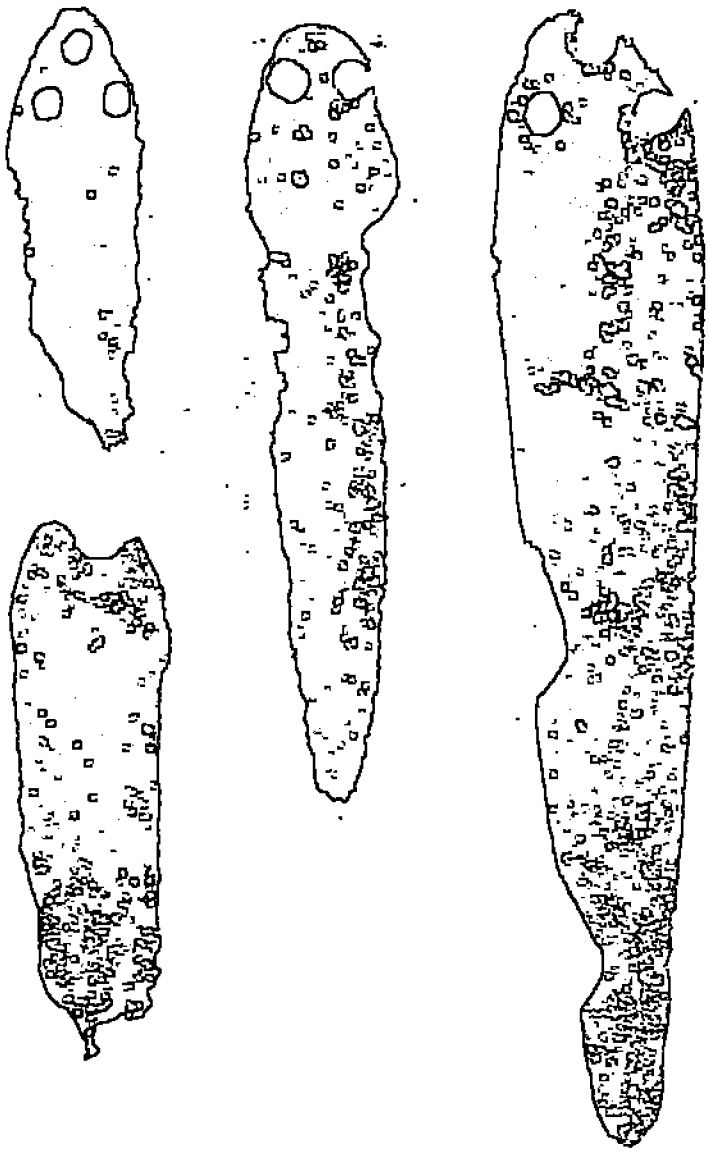

الرسم ٦ – نصول خناجر من النحاس وُجدت في الحرار (الالف الرابع ق . م)

(حقوق النقل محفوظة للاستاذ دورنان .Copyright by M. Maurice Dunand)

المدن الفنيقية تجارةً وسعة نفوذ . وسواء أكانت صور قد احتكرت منذئذ اعمال التجارة كلها التي كانت تتقاسمها ومدينة صيدون ، أو انتقل الصيدونيون اليها بجميع سفنهم ، فاننا نرى صور من ذلك العهد ، المسلطة المطلقة على البحار تبسط نفوذها على البحر المتوسط بكامله.

ثم ان خراب طروادة واضمحلال الكثير من مراكز الثقافة الايجية ، وغزوات الاخائيين القادمين حديثاً من الشمال والذين لم يكونوا على شيء من الاضطلاع بمظاهر المدنيّة الرفيعة ؛ كل هذا فتح امام الصوريين منافذ بحر ايجه. فاحتلوا سواحله ، وأسسوا فيها المحطات العديدة لتجاراتهم ، وانشأوا الهياكل لآلهتهم. ولم يكتفوا بذلك ، بل بلغوا مركزاً عالياً في ذاك العالم المضطرب ، ومثلوا فيه دور المثقفين المدنيين. يدلنا على ذلك ما ظهر من الملاحم والاساطير اليونانية في هذا العهد ، وكلها تمدح مآتي الفنيقيين . ويكفي ان نشير الى ما تذكره الاوديسة عن دقة تطريزهم وإحكام منسوجاتهم ؛ والى اسطورة قدموس بن اجينور الصوري التي تفيدنا كيف تعلم اليونان الابجدية الفنيقية ، تلك الآلة العجيبة التي اخترعها الذهن الفنيقي ، فبسط بواسطتها العلوم الرفيعة ونزلها الى مستوى البشر اجمعين.

بيد ان ملاحي فنيقية الجزيئين لم يكتفوا بالتجارة مع الجزر اليونانية . وقد دفع بهم حب المغامرات ، والحاجة الى ايجاد منافذ جديدة لتجارتهم ، فساروا ينشئون المحطات والمراكز على طول الساحل الشمالي للبحر المتوسط . فتقدّموا من جزر اليونان الى صقلية ، فالى جزر البليار ، فالى اسبانية . ثم دفعوا بسفنهم فقطعوا اعمدة هركول ، او جبل طارق ؛ وقذفوا بها في المحيط الاطلنتايقي ، فأسسوا قاديكس . اما في الساحل الجنوبي فقد انشأ الفنيقيون اشهر مستعمراتهم ، وعلى رأسها اوتيكة وقرطاجة مدينة التجار الاغنياء التي غدا بأسُ كاتون جيداً في طلب تقويضها ، في سبيل سلامة الامبراطورية الرومانية

ولكن صور كانت قد ازدهرت ازدهاراً عجيباً واتسعت اتساعاً فسيحاً قبل ازدهار وليدتها قرطاجة ، بل قبل تأسيسها ، على ما يزعم البعض فرأينا ملكها حيرام ، معاصر داود وسليمان وحليفهما ، يهتمّ بتنظيم المدينة وتزيينها

في القرن العاشر ق. م. وكانت المدينة تقوم في ثلاث جزر قريبة من الساحل، يفصل احداها عن الاخرى سواعد بحرية ضيقة. فبنى حيرام الارصفة وطمر هذه الفواصل، وزاد في مساحة الجزيرة. وكان يقابل هذه المدينة البحرية مدينة اخرى برّية تقوم على الساحل اسمها باليتير.

وكانت المملكة الصورية تمتدّ الى البلاد الداخلية على مسافة لا بأس بها، حتى حدود المناطق التي احتلّها العبرانيون. فكان بهمّ صور، والحالة هذه، ان تمتنع من خطر جيرانها. على ان ملك هؤلاء الجيران الذي قام بتوحيد مناطقهم، وهو داود النبي، كان، لحسن حظّ الصوريين، مشغولاً بدره خطر اقوى عليه من خطر مملكة صور. ذلك انه عندما احتلّ العبرانيون ارض كنعان وجدوا على الساحل الجنوبي شعباً حديث العهد في هذه البلاد، هو الشعب الفلسطيني. وكان هذا الشعب يقرن بشجاعته الفطرية — وقد رأيناه يخرب مدينة صيدا — رغبةً شديدة في الحصول على ارض واسعة. فاخذ داود يجمع قواه واعتاده لمحاربة الفلسطينيين، وارتاح الى محالفة ملك صور الذي كان من مصلحته ان يتحد وملك اسرائيل على العدوّ المشترك.

ولم يمت داود حتى كان قد سحق اعظم اعدائه خطرًا، فمهد السبيل امام ولده وخليفته سليمان، فظهر جديرًا بالملك الذي تركه له ابوه. ارتاح الى السلم فاخذ يفتش عن موارد جديدة لزيادة ثروة مملكته. وكما انه ورث ارض كنعان، اراد ان يرث ايضاً ازدهار التجارة الكنعانية القديمة باعادة العلاقات مع بلاد الجنوب حيث الذهب والحجارة الكريمة. ومن الممكن ان يكون العبرانيون، مدة اقامتهم الطويلة في ارض قادش، قد استغلوا، اما مباشرة واما بواسطة الادوميين، موارد تلك الارض. على انه بسبب الحروب العديدة في ارض كنعان، تأخرت هذه التجارة، دون شك، فلم تكن على حالة مطردة. فشاء سليمان ان يبعثها ويعمل على ازدهارها.

كانت ارض سليمان ارضاً ساحلية. وكان شعبه لا يقوى على مجابهة بحر وافر الصعوبات كالبحر الاحمر. فلجأ الى حليف ابيه، الى الملك حيرام، ملك صور. وقد اشار الكتاب المقدّس الى هذا الامر فقال: (٣ سفر الملوك ٩: ٢٦-٢٨):

« وبنى الملك سليمان سفناً في عصيون - جابر التي بجانب أيلة عند شاطئ بحر القلزم في ارض أدوم. فارسل حيرام عبيده في السفن مع عبيد سليمان ، قوماً ملّاحين عارفين بالبحر . فأتوا أوفير واخذوا من هناك اربعمائة وعشرين قنطاراً من الذهب . واتوا بها الملك سليمان . »

« . . . وكذا سفن حيرام التي كانت تحمل ذهباً من أوفير جاءت من أوفير بخشب صندل كثير جداً وبحجارة كريمة . » (٣ سفر الملوك ١٠ : ١١)

« . . . لان الملك (سليمان) كانت له في البحر سفن ترشيش مع سفن حيرام . فكانت سفن ترشيش تأتي مرة في كل ثلاث سنين حاملة ذهباً وفضة وعاجاً وقِرَدةً وطواويس . » (٣ سفر الملوك ١٠ : ٢٢)

* * *

على ان صور لم تكتفِ بتمثيل هذا الدور التجاري وحده بالنسبة الى جيرانها العبرانيين والسوريين. بل تعدّته الى أمر انبل مرمى ، واوفر عائدة على الانسانية.

قبل ان يتبسط النفوذ الاشوري على هذه البلاد ، وبينما كانت مصر تغط في سُبات الانحطاط ، كانت صور خاصة ، والمدن الفنيقية عامة ، ترفع مشعال الفنّ والصناعة ، فتحافظ على المدنية وتنشر مبادئها شيئاً فشيئاً بين الشعوب الفتية التي اخذت على عاتقها تهذيبها وتثقيفها.

وهكذا كان لما قرّر سليمان انشاء هيكل ربّه العظيم ، وبناء قصر لنفسه فلم يرَ من يتجه اليه في ذلك الا ملك صور وارباب الفنّ من رجاله . فأرسل اليه قائلاً :

« كما فعلت مع داود ابي وارسلت له ارزاً ليبني لـه بيتاً ليسكن فيه ، تفعل معي فاني ابني بيتاً لاسم الرب الهي . . . وأرسل لي اخشاب أرز وسرو وصندل من لبنان . » (اخبار الأيام الثاني ٢ : ٣ و ٨) فارسل له حيرام ما طلب من الخشب على اطواف من ساحل لبنان الى بحر يافا ، وهو اصعده الى اورشليم.

ثم طلب سليمان من حيرام ان يمدّه بالصناع وارباب الفنّ فكتب اليه : « فالآن أرسل لي رجلاً حاذقاً بعمل الذهب ، والفضة ، والنحاس ، والحديد ،

والارجوان ، والقرمز ، والسمنجوني » (اخبار الايام الثاني ٢ : ٧) فوجه اليه حيرام « رجلًا ماهرًا صاحب فهم » كان اسمه حيرام ايضًا ، وكان « ابن رجل من صور خبير بعمل الذهب والفضة والنحاس والحديد والحجر والخشب والارجوان والسمنجوني والبز والقرمز وصناعة كل نقش واختراع كل شيء » (اخبار الايام الثاني ٢ : ١٣ ١٤) فصنع حيرام هذا للملك سليمان في بيت الله ، « العمودين ، والظرفين ، والتاجين اللذين على أرؤس العمودين ، والجديلتين المغطيتين لظرفي التاجين والرمانات الاربع مئة ... والقواعد العشر ، والمغتسلات العشرة التي على القواعد ، والبحر ، والثيران الاثني عشر التي تحته ، والقدور والمجارف والجامات ... من نحاس نقي ... والمناثر وسرجها من ذهب خالص ، والازهار والسرج والمقاط من ذهب تام الخلوص ... والمقاريض والجامات والصحون والمجامر من ذهب خالص » الى آخر ذلك (اخبار الايام الثاني : الفصل الرابع)

يتضح من كل ما تقدم ان الفنيقيين كانوا لجيرانهم سكان فلسطين وسورية اساتذة الفن والصناعة . وكانوا انفسهم قد استفادوا ذلك اولا من المصريين . على انهم لم يكتفوا بما نالوه ، بل زادوا عليه ونشروا ذلك حيثما رحلوا وحلوا ، حتى لقد كان جميع امراء سورية وفلسطين يطلبون حذاقتهم في الفن والصناعة ، وليس طلب سليمان لحيرام الا مثلًا حفظ ذكره لحوادث عدة من نوعه .

وقد دامت هذه الصداقة بين ملك العبرانيين وملك الصوريين طول حياة سليمان . اما بعد وفاته فقد ثار شعبه على ابنه رحبعام لان اباه كان قد ارهقهم بالضرائب الباهظة ، فالتفوا حول يارُبعام ونادوا به ملكًا . فانشطرت المملكة الى شطرين : مملكة يهوذا وعلى رأسها رحبعام في اورشليم . ومملكة اسرائيل وعلى رأسها يارُبعام . فما عسى يكون موقف صور من هاتين المملكتين ؟

كانت مملكة اسرائيل اقرب اليها من الاولى . وهي اهم بالنظر الى مساحتها ، وفيها سهول الاردن والساحل . فضلًا عن كون مملكة اسرائيل ادنى الى التساهل الديني من مملكة يهوذا واميل الى التقاليد الكنعانية القديمة . على انها كانت مضطربة النظام في اول امرها فتقلب على عرشها ثلاث أسر في سنين قليلة .

ولقد كان بامكان صور ان تستفيد من هذه الفوضى ، لو لم تكن هي ايضا كانت فريسة الشغب والاضطراب على اثر وفاة حيرام ؛ ولم تستقر فيها الحال الا عندما ملك ايتوبعل ، احد حفدة حيرام .

ولكن ان لم تكن صور احتلت ارض اسرائيل ماديا ؛ فقد اخضعتها لنفوذها معنويا . فغدا اسرائيل يرى رأي الصوريين في اكثر مناحي حياته ، فيقوم بالعبادات الكنعانية القديمة ، ويتزوج ملوكه بالاميرات الصوريات فيأتين معهن بالحاشية العديدة والنفوذ القوي . من ذلك ان عُمري ملك اسرائيل زوّج ابنه أخآب بايزابل ابنة إيتوبعل . فتملكت عليه شعوره ، وصرفته عن اتباع نصائح ايليا النبي . ولم تكتف بان ادخلت في اسرائيل عبادة بعل وعشتروت ، بل استفادت من ضعف زوجها فاخذت تفرض عليه اتخاذ قرارات يشوبها الظلم احياناً . حتى انها كانت تلقي الاوامر باسمه وتوقع عنه القرارات مرة بعد اخرى . ولا حاجة من ثمّ الى التبسّط في ذكر النفوذ الصوري في اسرائيل .

وقد تجاوز هذا النفوذ الى مملكة يهوذا . وكان ملكها يوشافاط ، معاصر أخآب قد حرّب ان يبني سفناً في عصيون - جابر على مثال سليمان . الا انه لم يلجأ اولا الى الفنيقيين كما فعل الحكيم قبله . فحبط المشروع .

عند ذلك اتجه يوشافاط بطامحه جهة الشمال ، فاتفق مع ملك اسرائيل ؛ وزوّج ابنه يورام بعتليا ابنة أخآب من ايزابل ثم حاربا ملك دمشق .

وبعد وفاة يورام ، ملك يهوذا ، خلفه على العرش ابنه أخزيا . وكان أخآب ملك اسرائيل قد مات وخلفه ابنه يورام . واذاً فيكون ملكا اسرائيل ويهوذا من نسل الاميرتين الصوريتين : يورام ، ملك اسرائيل ، ابن ايزابل وشقيق عتليا ؛ وأخزيا ، ملك يهوذا ، ابن عتليا

وبينما كان هذان الملكان يحاربان متحدّين ملك دمشق ، ثار عليهما الشعب بقيادة ياهو ابن يوشافاط ، فقتل ياهو امراء البيتين الملكيين جميعهم في ساحة الحرب وفي مدينة السامرة . وعندما رجع ياهو اشرفت ايزابل من قصرها وتهكّمت عليه ، فامر رجاله فطرحوها من الطاق ، فتوثّش من دمها على الحائط

وعلى الخيل وداستها » . ثم تناهشت الكلاب لحمها .

اما عتليا فكانت في اورشليم . وعندما وصلها نعي ابنها ونعي امراء اسرائيل جميعهم ، ارادت ان تقضي هي بنفسها على من بقي من بيت الملك فقتلت كل ابنائها الصغار الا يوآش الذي أُخفي عنها . ثم قُتلت .

وقد بلغ النفوذ الصوري في يهوذا على عهد عتليا اوج ازدهاره ، فدخل كثير من الآراء بل العقائد الدينية الفنيقية في ايام زوجها يورام وابنها أخزيا وفي ايام ملكها هي . وكان هذا العصر من اعظم عصور فنيقية ازدهارًا وانتشارًا نفوذ . فقد كانت صور سلطانة البحار ، وسيدة المستعمرات العديدة ، ممدنة البربر ، ومهذبة عملائها ، والسائدة بنفوذها على ممالك سورية عامة ، وخاصة على مملكتي يهوذا واسرائيل . ولعلّ ابلغ ما نختم به الكلام في وصف صور وما بلغت اليه سيادتها وتجارتها وازدهار مدنيتها ، قول حزقيال النبي متنبئًا على خرابها (نبوءة حزقيال : الفصل السابع والعشرون)

« وكانت اليّ كلمة الربّ قائلًا : وانتَ ، يا ابن البشر ، أَنْدُبْ بِرثاء على صور وقل لصور الساكنة عند مداخل البحر ، تاجرة الشعوب في جزائر كثيرة هكذا قال السيد الربّ :

« يا صور ، انك قلتِ انا كاملة الجمال . تخومُك في قلب البحار ، وبانوك اكملوا جمالك .

بسرو من سنير بنوا لك كلّ طباقك ، واخذوا ارز لبنان ليصنعوا سواري عليك . صنعوا مقاذيفك من بلوط باشان ، ومقاعدك من عاج مرصّع في الشربين من جزائر كتّيم . البزّ الموشّى من مصر كان ما نشرته شراعًا لك ، والسمنجونيُّ والارجوانُ من جزائر أليشة كانا غطاءك .

سكانُ صيدونَ وأرواد كانوا قذافين لك . وحكماؤك ، يا صور ، الذين فيك هم مدبّروك . شيوخُ جبلَ وحكماؤها كانوا فيك جلافطة حُذاقك .

وجميعُ سفن البحر وملّاحوها كانوا فيك لترويج موسك .

فارس ولوذ وفوط كانوا في جيشك رجال حربك وعلّقوا فيك المجنّ والخوذة . هم افادوك بهاء . بنو أرواد مع جيشك كانوا على اسوارك من حولك ،

والابطال كانوا في بروجك وعلقوا تروسهم على اسوارك من حوالك . هم اكملوا جمالك .

ترشيش متجرة معك في كثرة كل غنى ، وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص اقامت اسواقك.

ياوان وتوبل وماشك متجرون معك ، وبنفوس الناس وآنية النحاس اقاموا موسمك.

آل توجرمة بالخيل والفرسان والبغال اقاموا اسواقك.

وبنو ددان متجرون معك ، وجزائر كثيرة تجار يدك ، وقد ادت قرون العاج والابنوس قياضاً لك.

أرام متجرة معك في كثرة صنائعك ، وبالبهرمان والارجوان والوشي والكتان والمرجان والياقوت اقامت اسواقك.

يهوذا وارض اسرائيل متجرتان معك ، وبحنطة منيت والحلاوى والعسل والزيت والباسان اقامتا موسمك.

دمشق متجرة معك لكثرة صنائعك من اجل كثرة كل غنى لك بخمر حلبون وبالصوف الابيض.

دان وياوان بالغزل اقامتا اسواقك . وكان في موسمك حديدهما المصنوع وقصب الذريرة.

ددان متجرة معك بالنمارق للركوب.

العرب وجميع رؤساء قيدار هم تجار يدك بالخملان والكباش والتيوس . فانهم بهذه اتجروا معك.

تجار شبا ورعمة متجرون معك ، وبافضل كل طيب وبكل حجر كريم ، وبالذهب اقاموا اسواقك.

حاران وكنة وعادان وتجار شبا واشور وكلمد متجرون معك . هؤلاء يتجرون معك بالانسجة الفاخرة ، بأردية من السمنجوني والوشي ، وبالنفائس من الثياب المبرمة والمشدودة بالحبال المعكومة بين بضائعك.

سفن ترشيش سيارة لكل ، لموسمك ، وقد امتلأت وصرت ذات مجد

عظيم في قلب البحار.

ان غنائكِ ، واسواقكِ ، وموسمكِ ، وملاحيكِ ، ومدبّريكِ ، وجلافطة خصاصكِ ، وباعة تجارتكِ ، وجميع رجال حربكِ الذين فيكِ ، وكلّ الجمع الذي في وسطكِ ، يسقطون في قلب البحار يوم سقوطكِ.

من صوت صراخ مدبّريكِ ترتعش محاجرك . فجميع ضابطي المقاذيف والملاحون ، وجميع مدبّري البحر ينزلون من السفن ، ويقفون على البرّ ، ويسمعون عليكِ اصواتهم ، ويصرخون بمرارة ، ويحثون فوق رؤوسهم تراباً ، ويتمرّغون في الرماد ، ويحلقون شعرهم عليكِ ، ويتحزّمون بالمسوح ، ويبكون عليكِ بمرارة النفس مندباً مرّاً . وفي نوحهم يُشيدون عليكِ بالرثاء ويرثونك قائلين : من كصور ، كالهدومة في وسط البحر ؟

بخروج سلعكِ من البحار اشبعت شعوباً كثيرين ، وبكثرة اموالكِ وبضائعكِ اغنيتِ ملوك الارض . يوم انكسارك من البحار في اعماق المياه سقطت بضائعك ، وكل جمعكِ في وسطكِ . جميع سكان الجزائر اندهشوا عليكِ . وملوكهم اقشعرّت شعورهم وامتقعت وجوههم . والتجار في الشعوب صفروا عليكِ ، وقد صرت الى العدم ، فلا تكونين الى الابد . »

والابطال كانوا في بروجك وعلقوا تروسهم على اسوارك من حولك . هم اكملوا جمالك .

ترشيش مُتجرة معك في كثرة كل غنى ، وبالفضة والحديد والقصدير والرصاص اقامت اسواقك.

ياوان وتوبل وماشك مُتجرون معك ، وبنفوس الناس وآنية النحاس اقاموا موسمك.

آل توجرمة بالخيل والفرسان والبغال اقاموا اسواقك.

وبنو دَدَان متجرون معك ، وجزائر كثيرة تجار يدك ، وقد ادّت قرون العاج والابنوس قِياضاً لك.

أرامُ مُتجرة معك في كثرة صنائعك ، وبالبهرمان والارجوان والوشي والكتان والمرجان والياقوت اقامت اسواقك.

يهوذا وارض اسرائيل متجرتان معك ، وبحنطة مِنّيت والحلاوى والعسل والزيت والبلسان اقامتا موسمك.

دمشق متجرة معك لكثرة صنائعك من اجل كثرة كل غنى لك بخمر حلبون وبالصوف الابيض.

دان وياوان بالغزل اقامتا اسواقك . وكان في موسمك حديدهما المصنوع وقصب الذُريرَة.

دَدَان متجرة معك بالمفارق للركوب.

العرب وجميع رؤساء قيدار هم تجار يدك بالحملان والكباش والتيوس . فانهم بهذه اتجروا معك.

تجار شبأ ورعمة متجرون معك ، وبافضل كل طيب وبكل حجر كريم ، وبالذهب اقاموا اسواقك.

حاران وكنّة وعادان وتجار شبأ وأشور وكِلمد متجرون معك . هؤلاء يتجرون معك بالانسجة الفاخرة ، بأردية من السمنجوني والوشي ، وبالنفائس من الثياب المُبرَمة والمشدودة بالحبال المحكمة بين بضائعك.

فمن ترشيش سيارة الكِ ، لموسمك ، وقد امتلأتِ وصرتِ ذات مجد

ونحن ، اذا قلنا انه لم يكن عند العرب تمثيل نعني ان العرب لم يستعيضوا في موقف من المواقف عن شخص غيَّبه عنهم الموت او البعد بآخر اتخذ صورته او ما يقرب منها ، وقلّد نبرات صوته ، واحوال مشيته ، وجميع طرق معيشته المعروفة عند عارفيه[1] . ذلك انا لا نحسب من التمثيل ما يصنعه الناس من قبيل الشعائر الدينيّة كتمثيل قتل الحسين عند الشيعة[2] او بعض ما كان يأتيه اصحاب الطرق الصوفيـة من الاشارات والحركات التمثيلية ، والا لكانت كل شعائر المسيحيين والمسلمين واليهود والبوذيين وغيرهم من الملل والطوائف تمثيلًا خالصاً . . .

لم يكن للعرب تمثيل أي ان شعراءهم وادباءهم عامة لم ينصرفوا الى تأليف الروايات التمثيلية كما هي مفهومة في ايامنا[3] .

. . .

ولماذا لم يعرف الاقدمون التمثيل فقعدوا عنه وباتت الآداب العربية تشكو هذا النقص الى ما قبل ايامنا بالقليل ؟

لذلك اسباب داخلية واخرى خارجية يرجع بعضها الى العصور الجاهلية وبعضها الى الاسلام :

اجل ! لم نكن لنتوقع من الجاهلية روايات تمثيلية . واسباب ذلك ظاهرة تعود بمعظمها الى طبيعة العربي الجاهلي — او قل البدوي ابن البادية الخ — وحالة اللغة العربية آنذاك ؛ وغيرها تعود الى عوامل خارجية تتعلق بالمجتمع .

اما الاسباب التي تعود الى طبيعة العربي الجاهلي فهي انه غير ميّال بفطرته

---

١) وقد وصف النقادة الالماني (Schlegel) ، التمثيل اذ قال : « انه يبعد لنا اخبار الناس بطريقة شائقة لا نظير لها اذ يحاكيهم في طباعهم وعوائدهم وانواعهم واساليبهم حاكاة بما يخيّل لنا انهم نشروا من مدافنهم وظهروا علينا بظهر الاحياء على حالتهم الاصلية كأنهم لم يغيّبوا من عالم الوجود » (المشرق ٣ [١٨٩٩] ٣٠)

٢) زيدان : تاريخ الآداب العربية ٣ : ٣٠٠

٣) ونحن لا نعتبر رواية تمثيلية ما اكتُشف اخيرًا من آثار ادباء العصر العربي ، اعني ذلك الكتاب « طيف الخيال » لابن دانيال الموصلي الذي يقرب — عن بعد — من فن التمثيل . الا انه يُعدّ من نوع ما نسميه اليوم في لبنان ، كما يشهد بحق زيدان نفسه (٣ : ١٢١) ، « الكراكوز » ليس غير .